غزوة المُرَيْسيع (بني المُصْطَلِق)

في شعبان سنة ٥ هـ

تُعدُّ هذه الغزوة من الوقائع التي أنزل الله فيها قرآناً يجب أن تُتَدبر آياتُه وتُعرفَ عظتُه وحكمته.

سبب الغزوة:

وسبب هذه الغزوة أنَّ النبي ﷺ قد بلغه أن الحارثَ بن أبي ضِرار - سيِّد بني المصطَلِق - قد سار في قومه ومن قَدَر معه من العرب؛ يريدون حرب رسول الله ﷺ.

ولما عرف رسولُ الله خبرَهم وما عزموا عليه، نَدَبَ الناسَ، فأسرعوا في الخروج إليهم وباغتهم، وخرج معهم جماعةٌ من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قبلها.

وبَلَغَ الحارثَ بن أبي ضرار ومَنْ معه مسيرُ رسول الله ﷺ، فخافوا خوفًا شديدًا، وتفرَّق عنهم مَنْ كان معهم من العرب.

وانتهى رسولُ الله ﷺ إلى المُرَيْسيع - وهو مكان الماء - فضرب عليه قُبَّتَهُ، ولم يكن بينه ﷺ وبين بني المصطلق قتالٌ، وإنما أغار عليهم على الماء، فسَبَي ذراريهم وأموالَهم، كما في الصحيح.

روى البخاري عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أنَّ النبي ﷺ: أَغَارَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَهُمْ غَارُّونَ[1] وَأَنْعَامُهُمْ تُسْقَى عَلَى الْمَاءِ، فَقَتَلَ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَسَبَى ذَرَارِيَّهُمْ، وَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ جُوَيْرِيَةَ)[2].

---

(١) غَارُّونَ: غافلون.

(٢) البخاري - كتاب العتق، حديث رقم ٢٣٥٥.

وقد كانت جُوَيْرِيَةُ - رضي الله عنها - من جملة السبي، وهي بنت الحارث سيِّد القوم، وقعت في سَهْم ثابت بن قيس، فكاتبها، فأدَّى عنها رسولُ الله ﷺ وتزوجها، فأعتق المسلمون - بسبب هذا الزواج - مئة أهلِ بيت من بني المصطَلِق قد أسلموا، وقالوا: أصهارُ رسول الله ﷺ.

قالت عائشة - رضي الله عنها -: «فَمَا رَأَيْنَا امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا، أُعْتِقَ فِي سَبَبِهَا مِائَةُ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ»(١).

ابن أُبي يتطاول على رسول الله ﷺ:

ذكر ابن إسحاق قال:

وبينا رسولُ الله ﷺ على ذلك الماء، وردت واردةُ الناس، ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بني غِفَار يُقال له: جهجاه ابن مسعود، يقودُ فرسَه، فازدحم جهجاهُ وسِنَانُ بن وَبَر الجهني على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجُهني: يا معشر الأَنْصَار، وصرخَ جهجاهُ: يا معشر المهاجرين.

فغضب عبدُ الله بن أُبَيٍّ بن سَلُول، وعنده رَهْط من قومه فيهم زيدُ بن أرقم غلام حَدَث، فقال: أَوَقَد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدنا وجلابيب قريش إلاَّ كما قال الأولُ: سمِّن كلبَك يأكلك، أما والله، لئن رَجَعْنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ.

ثم أقبل على مَنْ حضر من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادَكم، وقاسمتموهم أموالَكم، أما والله، لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير داركم.

---

(١) مسند أحمد - باقي مسند الأنصار، حديث رقم ٢٥١٦١، سنن أبي داود - كتاب العتق، حديث رقم ٣٤٢٩.

فسمع ذلك زيدُ بن أرقم: فمشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ الرسول ﷺ من عَدُوِّه، فأخبره الخبرَ وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: مُرْ به عبادَ بن بشر فليَقْتُله.

فقال له رسولُ الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدَّث الناسُ أنَّ محمدًا يقتُلُ أصحابَه؟! لا. ولكن أذِّن بالرحيل.

فكان ذلك في ساعةٍ لم يكن رسولُ الله ﷺ يرتَحلُ فيها، فارتَحَلَ النَّاسُ.

اعتذار ابن أُبيّ:

وقد مشى عبدُ الله بن أُبَيٍّ بن سَلُول إلى رسول الله ﷺ حين بَلَغه أن زَيد ابن أرقم قد بَلَّغَه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قُلتُ ما قال ولا تكلمت به، وكان في قومه شريفًا عَظيمًا.

فَقَالَ مَنْ حضَر رسول الله ﷺ من الأَنْصَار من أصحابه: يا رسولَ الله، عسى أن يكون الغلامُ قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل. حَدَبًا على ابن أُبَيّ ودفْعًا عنه.

موقف الرسول ﷺ من مقالة ابن أُبَيّ:

قال ابنُ إسحاق:

فَلَمَّا استقلَّ رسول الله ﷺ وسار، لَقِيَه أُسَيْدُ بن حُضَيْر، فحيَّاه بتحية النُّبُوَّة، وسَلَّمَ عليه، ثُمَّ قال: يا نبيَّ الله، والله لقد رُحْتَ في ساعةٍ مُنْكَرة ما كنتَ تروح في مثلها.

فقال له رسولُ الله ﷺ: أوَ مَا بلغك ما قال صاحبُكم؟

قال: وأيُّ صاحب يا رسول الله؟

قال: عبدالله بن أُبَيّ.

قال: وما قال؟

قال: زعَم أنَّه إنْ رجع إلى المدينة لَيُخْرِجنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ.

قال: فأنت - يا رسولَ الله - تُخرجُه منها إنْ شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز.

ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنَّ قومَه لَيَنْظمونَ له الخَرزَ لِيُتَوِّجُوه، فإنه يرى أنَّك قد استلبتَهُ مُلْكًا.

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومَهم ذلك حتَّى أمسى، وليلَتهم حتَّى أصبح، وصَدْرَ يومهم ذلك، حتَّى آذتْهم الشمسُ، ثُمَّ نزل بالناس، فلم يلبثوا أنْ وجدوا مَسَّ الأرض، فوقعوا نيَامًا.

وإنما فعل ذلك رسولُ الله ﷺ لِيَشغل النَّاسَ عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبدالله بن أُبَيّ.

ما نزل في ابن أُبَيّ من القرآن:

ونزلت السورةُ التي ذَكر الله فيها المنافقين في ابن أُبَيّ ومَنْ كان على مِثْل أمره، فلمَّا نزلت أخذَ رسولُ الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم، ثُمَّ قال: هذا الذي أوفى الله بأذنه.

وَبَلَغَ عَبدَ الله بن عبدِ الله بن أُبَيّ الذي كان من أمْر أبيه فقال:

يا رسول الله، إنَّه بلغني أنَّك تُريدُ قَتْلَ عبدالله بن أُبَيّ فيما بلغك عنه، فإنْ كنتَ لابُدَّ فاعِلاً فمُرني به؛ فأنا أحمل إليك رأسَه!!

فقال رسول الله ﷺ: «بَلْ نَترفَّقُ ونُحْسِنُ صُحْبتَه ما بَقيَ معنا»

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدَث كان قومُه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويُعَنِّفونه.

فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم:

«كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قَتَلْتُه يوم قُلْتَ لي اقتُله، لأُرعدت له أُنُفٌ لو أمرتها اليوم بقتله لقتَلَتْهُ».

قال عمر: قد والله علمتُ لأَمْرُ رسول الله ﷺ أعظم بركةً من أَمْري.

حادثة الإفك:

وأقبل رسولُ الله ﷺ من سفره حتَّى إذا كان قريباً من المدينة، وكان معه عائشة - رضي الله عنها - في سفره، قال فيها أهلُ الإفك ما قالوا:

وكان الذي تَوَلَّى كبره منهم عبدُ الله بن أُبَيّ بن سَلُول، وهو الذي نزلت فيه وفيمَنْ كان على مثْل أَمْره سورة المنافقون.

وها هو ذا يتولَّى ما هو أشدُّ، ويَنْزل فيه ما نزل من سورة النُّور.

فإنَّ النفاقَ هو النفاقُ، وذاك عملُه..

ولكن قبل أن نعرض لحديث الإفك علينا أن نقف - أولاً - وقْفَةً يسيرة عند سورة المنافقون التي بُدئت بقوله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾[1] وهي سورة مَدَنِيَّة، وآياتُها إحدى عشرة آية.

تحدثت السورةُ عن المنافقين بصورة عامة، ثُمَّ ذكرت ما وقع من رأس النفاق عبدالله بن أُبَيّ بن سَلُول من قوله: ﴿**لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ**﴾[2].

وقوله هو ومَن كان على شاكلته: ﴿**لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا**﴾[3].

---

(١) المنافقون: ١.
(٢) المنافقون: ٨.
(٣) المنافقون: ٧.

والآيات التي نزلت في ذلك تُقدِّم عظتَها للمؤمنين؛ ليكونوا على بصيرة من أمرهم في كُلِّ شأن من شئونهم.

فما الذي دفع أهلَ النفاق أن يقولوا مِثْلَ هذا القول؟

إنَّنا لو أحسنَّا التدبُّر لوَجدنَا أنَّ حديثَ القرآن الكريم يُشير إلى أمرين يجب الاحتراس منهما والحَذَر من آثارهما.

يُؤخَذُ ذلك من حديث القرآن الذي يُبيِّن أن الفَخْرَ الذي يَفْخَرُ به المنافقون راجع إلى رُكونهم إلى المال الذي يتواصون فيه مع غيرهم ألاَّ يُقدِّموا منه أيَّ عَوْن للمهاجرين ﴿**هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا**﴾.

يا الله!! أَغَابَ عن هؤلاء أنهُّم وما يُنفقونه على أنفسهم أو على غيرهم، هو من عند الله؟ فلا فخر لهم من ذلك بشيء

﴿**وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ**﴾

ونرى القرآنَ – هنا – لا يذكر متعلَّق ﴿**لا يَفْقَهُونَ**﴾ لا يفقهون ماذا؟

لتذهب النفسُ في تقديره كُلَّ مَذْهَب.

وكفَاهُم أنَّهم لا يفقهون أنفسَهم، ولا يفقهون شيئاً وهم يُبصرون نَصْرَ الله لهم، وأنَّهم – بهجرتهم – قد انتصروا على أهوائهم، وأحصوا كُلَّ أمرهم لخالقهم، فعَظُم شأنُهم، إذْ لا يَعْظُم شأن مَنْ يَعظُم عند ربِّه إلاَّ من انتصر على هَوى نفسه

والمنافقون يَرَوْن دَلالةَ ذلك في كُلِّ مَنْ هاجر في سبيل الله، وصَدَق الله في جميع أمره من المهاجرين ومَنْ أحبَّهم وآثرهم من الأَنْصَار

ويُؤخذ – أيضاً – من قولهم وهم يقولون: ﴿**لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ**﴾ فهُم يَرَوْن عزَّتهم في عِزْوتهم، وأنهم أصحاب هذه الدَّار.

وكـذبوا وضلُّوا؛ لأنَّ الأرض لله وحـده، يُورثهـا مَنْ يشـاء من عـبـاده، ولا يستوي عند الله من أفْسَدَ فيها ومَنْ أصلَحَ.

والكُلُّ راجعٌ إليه وحده لا إلى أحد سواه

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾(١).

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

ولـو أنـنا تدبَّرنا التناسبَ بين الآيات، ووقـفنا عند قـول الله - تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾(٣) لعرفنا أنَّ النهي عن ذلك تحذيرٌ من الوقوع في النفاق الذي أودى بأصحابه وساقهم إلى عذاب أليم.

نَهْيٌ عن الفتنة بالعزوة والمال، وكم من ناس في دنيا الناس قد يغفلون عن فتنة المال، فيضلون ويُفسدون ويُهلكون، ولا يرون ذلك إلاَّ عندما يُحاط بهم فلا يُنصرون بعزوة أو مال، وما كانوا منتصرين، وليسْ أمامهم إلا الندم والحسرة والخسران.

من أجل ذلك نادى الله أهلَ الإيمان أنْ يعملوا بمقتضى إيمانهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾

لأنَّ مَنْ أَلْهَـاهُ مـالُه أو ولدُه عن ذِكْـر ربِّه، فُـتِنَ بِمَـا هُو فـيـه، ونَسـىَ مـا هو مُقبلٌ عليه، فَعُوقِبَ من اللهِ بعقابٍ يُفقده الرُّشدَ في جميع أمره

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾(٤).

ومَن نَسِيَ نَفْسَـه - عقاباً من ربِّه - أوقَعَها في جميع الموبقات وهو يحسب أنه يجلب لها النافعات.

---

(١) مريم: ٤٠.
(٢) المنافقون: ٨.
(٣) المنافقون: ٩.
(٤) الحشر: ١٩.

obeikandi.com

يسيء وهو يحسبُ أنَّه يُحسِن، ويَضِل وهو يظن أنه يُصلح!

وصدق الله العظيم ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(١).

ذلك ما يترتب على عقاب مَنْ نسى الله فأنْسَاه الله نفسَه، وذاك ما وقع فيه المنافقون وساءت به عاقبتهُم.

فلا تكونوا - مَعْشَرَ المؤمنين في أيِّ زمان أو مكان - مثلهم؛ فإنَّ سُنَّة الله لا تُجاملُ أحدًا ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٢).

ولن تَسْلَمَ النفوسُ من ذلك إلاَّ إذا سَلمَتْ من هَواها، وجعلت من مرضات الله والإخلاص له سبيلَ عزِّهَا.

ويَا لَهَا من دلالة أن تُختَم السورة بقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٣).

*****

والآن تعالوا بنا لنرى ما وقع من أولئك المنافقين عندما أقبل رسولُ الله ﷺ من سفره في غزوة بني المصطلق، وكان قريباً من المدينة، وكانت معه عائشةُ - رضي الله عنها -.

قال فيها أهل الإفك ما قالوا، ولا يغيب عن أحد ما يريده رأسُ النفاق من حديث الإفك..

---

(١) الكهف: ١٠٣، ١٠٤.
(٢) المنافقون: ٩.
(٣) المنافقون: ١٠، ١١.

إنَّه يريدُ أن يصيب الدَّعْوَةَ إلى الإسلام في مَقْتَلٍ، فلم يكن الافتراء الذي وقع من المنافقين مجرد كَذِبٍ يُقال ثُمَّ يمضي، وإنَّما كان نَيْلاً من الرسالة والرسول في أخَصِّ خصائصه.

ولكن الله - سبحانه وتعالى - أبْطَلَ كيْدَ الكائدين، وسَلمَتْ المدينةُ المُنَوَّرَة من إشاعة الخُبْث، وعادَتْ رَمْيَةُ القوم إلى نُحورهم.

وأراد الله - بما أنزل من الذكر الحكيم - أن يظلَّ هذا الحديث مذكورًا ومَتْلُوّاً إلى يوم الدِّين؛ لأنَّ ما فيه من عِبَرٍ وعظات لا يقف عند وَقْتٍ بعينه، وإنما يمتدُّ؛ ليرى الناسُ ما يجب أن يكونوا عليه عندما يقولون أو يسمعون.

ويُريهم - في الوقت نفسه - أنَّ الأحداثَ والوقائع - صغُرت أو كبُرت في أيِّ زمان أو مكان - ليست بمعزل عن علم وحساب وجزاء.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ من مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ من ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(١).

قالت عائشةُ - رضي الله عنها -:

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سَفَرًا أقرع بين نسائه، فأيَّتُهُنَّ خرج سَهْمُها خرج بها معه.

فلما كانت غزوة بني المصْطَلِق أقْرَع بين نسائه كما كان يَصْنع، فخرج سَهْمي عليهن معه، فخرج بي رسول الله ﷺ.

قالت: وكان النساء إذْ ذاك يأكُلْنَ العُلَقَ، لم يَهجْهُنَّ اللَّحمُ فَيَثْقُلْنَ، وكنتُ إذا رُحِّلَ لي بعيري جَلَسْتُ في هَوْدَجِي(٢) ثُمَّ يأتي القوم الذين يُرَحِّلُون لي ويحملونَني، فيأخذون بأسفل الهَوْدج فيرفعونَه، فَيَضَعُونَه على ظهر البعير، فينطلقون به.

---

(١) يونس: ٦١ .

(٢) الهودج: ما تركبه المرأة فوق الدابة في السفر.

قالت: فلما فرغ رسولُ الله ﷺ من سفره، وجَّه قافلاً، حتَّى إذا كان قريباً من المدينة نزل مَنْزلاً، فبات به بعض الليل، ثُمَّ أذَّن في الناس بالرَّحيل، فارتحل الناس.

وخرجتُ لبعض حاجتي وفي عُنقي عِقْدٌ لي فيه جَزْع ظَفار[1] فلمَّا فرغتُ انْسَلَّ من عُنقي ولا أدري، فلمَّا رجعت إلى الرَّحْل ذهبتُ أَلْتَمِسُه في عُنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعتُ إلى مكاني الذي ذهبتُ إليه، فالتمستُه حتَّى وجدتُه، وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يُرَحِّلُون لي البعيرَ وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودجَ وهم يَظُنُّون أنِّي فيه كما كنتُ أصنع، فاحتمَلُوه، فَشَدُّوه على البعير، ولم يَشُكُّوا أنِّي فيه، ثُمَّ أخذوا برأس البعير، فانطلقوا به، فرجعتُ إلى العسكر وما فيه من داعٍ ولا مُجيب، قد انطلق الناس.

قالت: فَتَلَفَّفْتُ بجلبابي، ثُمَّ اضطجعتُ في مكاني، وعرفتُ أن لو قَد افتقدتُ لَرُجِع إلَيَّ.

قالت: فوالله، إني لمُضطجعة إذ مَرَّ صفوان بن المعطَّل السُّلَمي، وقد كان تخلَّف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس، فرأى سَوادي، فأقبل حتَّى وقف عَلَيَّ، وقد كان يراني قبل أن يُضْرَب علينا الحجابُ.

فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ظعينة[2] رسول الله ﷺ! وأنا متلفِّفة في ثيابي.

قال: ما خَلَّفَك يرحمك الله؟

قالت: فما كلَّمْتُه. ثُمَّ قرَّب البعيرَ فقال: اركبي، واستأخر عنّي.

قالت: فركبتُ، وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعاً يطلب الناس.

فوالله، ما أدركْنَا الناسَ، وما افتُقِدْتُ حتَّى أصبحتُ ونزل الناس، فلمَّا اطمأنّوا طلع الرجلُ يقود بي، فقال أهلُ الإفك ما قالوا، فارتَجَّ العسكرُ، ووالله، ما أعلمُ بشيءٍ من ذلك.

---

(١) جَزْع ظَفار: أي خرز بلاد ظفار.

(٢) الظعينة: المرأة في السفر.

ثم قدمنا المدينة، فلم ألبَثْ أن اشتَكَيْتُ شكوى شديدة، ولا يبلغني من ذلك شيء، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبويَّ، لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيرًا، إلاَّ أني قد أنكرتُ من رسول الله بعضَ لُطْفِه بي.

كنتُ إذا اشتكيت رَحمني، ولَطَفَ بي، فلم يَفْعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرتُ ذلك منه. كان إذا دخل عَلَيَّ وعندي أُمِّي تمرضني، قال: كيف تيكُمْ؟ لا يزيد على ذلك.

قالت: حتَّى وجدتُ في نفسي، فقلتُ: يا رسول الله - حين رأيتُ ما رأيتُ من جَفَائِه لي - لو أذنتَ لي فانتقلتُ إلى أُمِّي فمرَّضتني؟

قال: لا عليك.

قالت: فانتقلتُ إلى أُمِّي ولا عِلْمَ لي بشيءٍ مما كان، حتَّى نَقهْتُ[1] من وَجَعي بعد بضعٍ وعشرين ليلة.

وكنَّا قومًا عَرَبًا لا نَتَّخِذُ في بُيُوتنَا هذه الكُنُف[2] التي تَتَّخذُها الأعاجمُ؛ نعافُهَا ونكرهُها، إنما كنَّا نذهب في فُسَح المدينة، وإنما كانت النساء يَخْرُجْنَ كُلَّ ليلة في حوائجهن.

فخرجتُ ليلةً لبعض حاجتي، ومعي أمُّ مِسْطح بنتُ أبي رُهم بن المطَّلب بن عبدمناف، وكانت أمُّها بنتُ صَخْر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، خالةَ أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

قالت: فوالله، إنها لَتَمْشي معي إذ عَثُرت في مِرْطها[3] فقالت: تَعِس مسطح ومسطح لقب واسمه عَوف.

---

(١) نَقهْتُ: شُفيتُ واستعدت صحتي.
(٢) الكُنُف: جمع كنيف، وهو موضع قضاء الحاجة.
(٣) المرط: كساء من صوف.

قالت: قلتُ: بِئْسَ لَعَمْرُ الله ما قُلْتِ لرجل من المهاجرين قد شهد بدرًا

قالت: أوَمَا بَلَغَكِ الخبرُ يا بنتَ أبي بكر؟

قالت: قلتُ: وما الخبر؟

فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك.

قالت: قُلْتُ: أوَ قَدْ كان هذا؟ قالت: نعم والله لقد كان.

قالت: فوالله، ما قَدرت على أن أقضي حاجتي، ورجعتُ، فوالله ما زلتُ أبكي حتَّى ظننتُ أن البكاء سيصدع كبدي.

قالت: وقُلتُ لأُمِّي: يغفرُ الله لك، تحدَّث الناسُ بما تحدَّثوا به، ولا تَذكرين لي من ذلك شيئًا.

قالت: أيْ بُنَيَّة، خَفِّضي عليك الشأنَ، فوالله، لقَلَّمَا كانت امرأةٌ حسناءُ، عند رجلٍ يحبُّها، لها ضرائر، إلا كثَّرنَ وكثَّر الناس عليها.

قالت: قُلتُ: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا؟!!

قالت: فبكيتُ تلك الليلة، حتَّى أصبحتُ لا يرقَأُ لي دَمْعٌ[1] ولا أكتَحِلُ بنوم، ثُمَّ أصبحتُ أبكي وأبواي يظُنَّان أنَّ البكاء فالق كبدي[2].

فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، أستأْذَنَتْ عليَّ امرأةٌ من الأَنْصَار، فأذنْتُ لها، فجلسَتْ تبكي.

قالت: فقام رسولُ الله ﷺ على المنبر، فاسْتَعْذَر من عبدالله بن أُبَيّ بن سَلُول.

قالت: فقال رسولُ الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، مَنْ يَعْذِرُني من رَجُلٍ قد بَلَغَ أذاه في أهل بيتي؟ فوالله، ما علمتُ على أهلي إلاَّ

(١) رقأ: أي انقطع.
(٢) فالق كبدي: أي شاق.

خيرًا، ولقد ذكروا لي رجلاً ما علمت عليه إلاَّ خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي».

فقام سعدُ بن مُعَاذ الأَنْصَاري فقال: أنا أَعْذِرُك منه يا رسول الله، إنْ كان من الأوس ضربنا عُنُقَهُ، وإنْ كان من إخواننا الخزرج أمرتنا فَفَعلنا أمرَك.

قالت: فقام سعدُ بن عبادة - وهو سيِّدُ الخزرج، وكان رجلاً صالحًا، ولكن اجْتَهَلَتْه الحَميَّةُ - فقال لسعد بن مُعَاذ: كذبتَ، لعَمْرُ الله، لا تقتله، ولا تَقْدِرُ على قتْله.

فقام أسيدُ بن حضير - وهو ابنُ عمِّ سعد بن مُعَاذ - فقال لسعد بن عبادة: كذبتَ لَعَمْرُ الله، لنقتُلَنَّه، فإنَّك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيَّان الأوسُ والخزرجُ، حتَّى هَمُّوا أن يقتتلوا ورسول الله قائمٌ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضُهم حتَّى سكتوا، وسكتَ.

قالت: ثُمَّ دخل عليَّ رسولُ الله وعندي أبواي، وعندي امرأةٌ من الأَنْصَار، وأنا أبكي وهي تبكي معي، فحمد الله وأثنى عليه، ثُمَّ قال:

يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله، وإنْ كُنْتِ قد قارَفْت سوءً مما يقولُ الناسُ فتُوبي إلى الله؛ فإنَّ الله يقبل التوبة عن عباده.

قالت: فوالله، ما هو إلا أن قال لي ذلك، فَقَلَصَ دمعي[1] حتَّى ما أُحس منه شيئًا، وانتظرتُ أبويَّ أن يجيبا عني رسول الله ﷺ، فلم يتكلَّما!

قالت: وأَيْمُ الله، لأنا كنتُ أحْقَر في نَفْسي وأصغَرَ شأنًا من أن يُنْزِلُ اللهُ فِيَّ قرآنًا يُقْرَأُ في المساجد ويُصَلَّى به، ولكني كنت أرجو أن يرى رسولُ الله ﷺ في نومه شيئًا يُكذِّب به الله عَنِّي لما يعلم من براءتي، أو يُخْبَر خبرًا، أمَّا قُرآنٌ يَنْزل فِيَّ فوالله، لَنَفْسي كانت أحقَرَ عندي من ذلك.

(١) قَلَصَ دمعي: أي جفَّ وذهب.

قالت: فلما لَمْ أرَ أبويَّ يتكلمان قُلتُ لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟

قالت: فقالا: والله ما ندري بماذا نُجيبه.

قالت: ووالله، ما أعلَم أهلَ بيت دخل عليهم ما دخل على آل بكر في تلك الأيام..

قالت: فلمَّا استعجما عَلَيَّ، استعبرتُ فبكيتُ.

ثُمَّ قلتُ: والله، لا أتوبُ إلى الله مما ذكرت أبدًا، والله إني لأعلم إنْ أقْرَرْتُ بما يقول الناس - والله يعلم أني بريئة - لأقُولَنَّ ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني.

قالت: ثُمَّ التمست اسم يعقوب فما أذكره، ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾(١).

فقالت: فوالله، ما بَرح رسولُ الله ﷺ مجلسَه حتَّى تَغَشَّاه من الله ما كان يتغَشَّاه، فَسُجِّي بثوبه، وَوُضِعَتْ له وسَادة من أدَم تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله، ما فَزِعتُ ولا بَاليتُ، قد عرفتُ أني بَريئة، وأن الله عز وجل غَيرُ ظالمي.

وأما أبواي: فوالذي نفس عائشة بيده، ما سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ حتَّى ظننتُ لتخرجنَّ أنفسهما؛ فَرَقًا من أنْ يأتيَ من الله تحقيقُ ما قال الناس.

قالت: ثُمَّ سُرِّيَ عن رسول الله ﷺ فجلس وإنَّه لَيَتَحَدَّر منه مثلُ الجُمان(٢) في يوم شَات؛ من ثِقَل القَوْل الذي أُنزل عليه فجعل يمسح العرقَ عن جبينه، ويقول: أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءَتك.

---

(١) يوسف: ١٨.

(٢) يتحدر منه: أي يقطر ويتصبب، والجُمان: حبَّات من اللؤلؤ، والمراد ينزل منه العَرَق على هيئة اللؤلؤ.

قالت: قُلتُ: بحمد الله، ثُمَّ خرج إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك.

قالت: فأنزل الله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ**﴾[١] عشر آيات.. فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات براءتي[٢].

قالت: فقال أبو بكر - وكان يُنْفِقُ على مسطح لقرابته منه وفَقْرِه -: والله لا أُنفقُ عليه شيئًا أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ منكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[٣].

فقال أبو بكر: والله، إني لأُحبُّ أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقةَ التي كان يُنفقُ عليه، وقال: لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة - رضي الله عنها -:

وكان رسول الله ﷺ سأل زينبَ بنت جحش زوج رسول الله ﷺ عن أمري: ما علِمت، أو ما رأيت؟ فقالت: يارسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمتُ إلاَّ خيرًا.

قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني[٤] من أزواج النبي ﷺ، فَعَصَمَهَا الله بالورع، وطفقت أُختُها «حَمْنَه بنت جحش» تحاربُ لها، فهلكت فيمن هَلَك.

*****

وبعدُ.. فهذه كلماتٌ موجزةٌ يسيرةٌ عن الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق - رضي الله عنها - تزوَّجها رسولُ الله ﷺ بمكة في شوَّال قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث وهي

---

(١) النور: ١١.

(٢) البخاري - كتاب الشهادات، حديث رقم ٢٤٦٧، كتاب المغازي، حديث رقم٣٨٢٦.

(٣) النور: ٢٢.

(٤) تساميني: أي تنافسني وتضاهيني.

بنت ست سنين، وبنى بهـا بالمدينة وهي بنت تسع سنين، وبقـيت عنده تسع سنين، ولم يتزوج بكرًا غيرها.

في الصحيحين عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ قالت:

قال رسول الله ﷺ: «أُرِيتُك فِي الْمَنَامِ مَرَّتَيْنِ وَرَجُلٌ يَحْمِلُك فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ(١) فَيَقُولُ: هَذِهِ امْرَأَتُك، فَأَقُولُ: إِنْ يَكُ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (يُمْضِهِ)»(٢).

وأخرج البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال لأمِّ سَلَمَة:

«يَا أُمَّ سَلَمَةَ، لاَ تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ؛ فَإِنَّهُ وَاللَّهِ، مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرِهَا»(٣).

وورد أن ابن عباس - رضي الله عنهما - استأذن على أُمِّ المؤمنين عائشة وهي في مرض وفاتها، فقال لها فيما قال:

أبشري، فما بينك وبين أن تلْقي رسول الله والأحبَّة إلاَّ أن تخرج الرُّوح من الجسد، كنت أَحبَّ نساء رسول الله ﷺ إليه، ولم يكن رسولُ الله يُحبُّ إلا طيباً. وسَقَطَتْ قلادتُك ليلة الأبْواء، فأصبح رسول الله ﷺ في المنزل يلتقطها، وأصبح الناس ليس معهم ماء، فأنزل الله - تبارك وتعالى - أن تيمموا صعيداً طيبًا، فكان ذلك من سببك ما أنزل الله لهذه الأمة من الرخصة، ثم أنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله، يُذكر فيه الله إلا تتلى فيه براءتك آناء الليل وآناء النهار.

فقالت - رضي الله عنها -: دَعْني منك يا ابن عباس، فوالذي نفسي بيده، لوددت أني كنت نسياً مَنْسيَّاً(٤).

---

(١) سَرَقَة مِنْ حَرِير: أي شقة من الحرير الجيد.

(٢) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٦٠٦.

(٣) البخاري - كتاب المناقب، حديث رقم ٣٤٩١.

(١) حلية الأولياء: ٤٥/٢، سير أعلام النبلاء ١٨٠/٢، صفوة الصفوة ٣٨/٢، الطبقات الكبرى ٧٥/٨، مسند أبي يعلى ٥٧/٥، فضائل الصحابة لابن حنبل ٨٧٣/٢.

وذكر ابن الجوزي في كتابه [صفة الصفوة] عن القاسم قال:

«كنت إذا غَدَوْتُ أبدأ ببيت عائشة أسلّم عليها، فغدوت يوماً فإذا هي قائمة تقرأ ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾[١] وتدعو وتبكي وترددها، فقمت حتَّى مللتُ القيام، فذهبت إلى السوق لحاجتي، ثُمَّ رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي»[٢].

وقد تُوفيت - رضي الله عنها - ليلة الثلاثاء لسبع عشرة من رمضان، سنة ثمان وخمسين، وهي ابنة ستٍّ وستين سنة.

*****

أرَأَيْتَ معي أنَّ أحداث المدينة ووقائعها يجب أن تُتدبَّر في آيات الذكر الحكيم؛ لتظَلّ - دائماً - موضع أُسْوَة وتقدير، فما أكثر وقائع الحياة التي تُذكر وتذهب.

أما الأحداث والوقائع التي يُنْزل الله فيها قرآناً يُرِينا سُنَنَ الله في واقع، فإنها لا تذهب بذهاب زمنها، ولا يتوقف عطاؤها بوفاة أهلها.

إنَّ سورةَ النُّور كلَّها يجب أن تُحفظ وفيها ما فيها من تبرئة البريئة الطاهرة عائشة ومن أحكام يجب أن تُذكر ولا تُنسى.. وهي السورة التي بُدئت بقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وخُتمت بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

*****

(١) الطور: ٢٧.
(٢) صفوة الصفوة: ٢/٣١.
(٣) النور: ٦٤.

obeikandl.com